



في 15 شباط (فبراير) 1989 عبر قائد القوات السوفياتية بأفغانستان الجنرال بورييس غروموف على قدميه جسر الصداقة الفاصل بين أفغانستان وأوزبكستان السوفياتية آنذاك، ليكون آخر جندي روسي يغادر أفغانستان بعد غزو وحرب دامية استمرت عقداً كاملاً انتهى بهزيمة السوفيات ومؤذناً بتغيرات هائلة في بلاده والمنطقة.

في أفغانستان كانت الأجواء احتفالية، بدا لهم أن جهادهم على وشك أن يكمل انتصاره، وأنها مسألة وقت وتسقط حكومة كابول الشيوعية التي تركها الروس مثخنة بالجراح وسط محيط شعبي يرفضها وثائر عليها، أجواء الانتصار امتدت إلى حلفاء المجاهدين الأفغان في الرياض وإسلام آباد، أيام وتدخل جمياً كابول تحتفل بالانتصار على تلك الدولة العظمى التي طالما هددتنا جمياً.

اجتمع قادة المجاهدين، وحولهم مئات الأفغان، قضاة وسياسيون، قادة ميدانيون، تجار ومهاجرون في روالبندى في أكبر «لوبا جيركا» شهدتها تاريخ أفغانستان، يحلمون بناء أفغانستان جديدة قوامها الإسلام والحرية، كنت يومها واحداً بين عشرات الصحافيين الذين جذبهم هذا المنظر السينمائي، وكأنه من فيلم «لورانس العرب» الشهير، وخصوصاً لقطات اجتماع العرب في قاعة عربية واسعة بدمشق، إذ اختصر عودة أبوتايه (أنطوني كوين) مع الشريف (عمر الشريف)، بينما يتحدث الجميع في وقت واحد من دون ضابط أو رابط.

الأفغان فعلوا الشيء نفسه، بدا بعد يومين أنه من المستحيل أن يتلقوا على تشكيل حكومة انتقالية لتتسلم السلطة من حكومة كابول، لم يستطع رجال الاستخبارات السعودية ولا الباكستانية، ولا قيادات الإخوان المسلمين الذين توافدوا للالحتفال بالانتصار الكبير، وعلى رغم نفوذهم الواسع عليهم، تقرب وجهات النظر بين الأفغان أو حتى ترتيب آلية للاتفاق ووضع حد للفوضى الهائلة التي سادت تلك القاعة الكبيرة.

في اليوم الثالث دخل القاعة مولوي جلال الدين حقاني، وكان أحد قادة المجاهدين البارزين وقتها وانضم إلىطالبان لاحقاً ومطلوب اليوم أميركياً، وغلق أبواب القاعة بالسلسل وأوقف رجاله أمامها يمنعون المندوبين من الخروج، هدأت القاعة أخيراً واستمعوا للرجل الذي يحترمونه أو يكرهونه، ولكنهم يهابونه، وزع عليهم خطة، طلب من كل زعيم حزب من الأحزاب السنية السبعة والسبعين الشيعيين الاثنين اختيار 60 مندوباً عن كل حزب، هؤلاء هم مجلس أهل الحل والعقد الذين سيختارون بالتصويت أعضاء الحكومة الانتقالية، كانت تلك الديمقراطية بالطريقة الأفغانية، فلم يحل مغرب ذلك اليوم إلا

وأعلنت أسماء الرئيس ونائبه وأعضاء الحكومة.

الفصل الثاني:

اعترفت المملكة وباكسستان بالحكومة الانتقالية، التي عقدت أول جلساتها بمزرعة قريباً من جلال آباد، وبعد أسبوعين بدأت عملية عسكرية لتحرير المدينة لكنها فشلت ولم تسقط الحكومة الشيوعية في كابول، وغزا صدام حسين الكويت، وانشغلت السعودية ومعها العالم بهذا التحدي الكبير، ونسى الجميع أفغانستان.

الفصل الثالث:

بعد عامين، فوجئ الجميع بأن كابول على وشك السقوط بيد أحمد شاه مسعود القائد البنشيري، لم يكن هناك وقت كافٍ لدى الأطراف الإقليمية لترتيب الوضع، فدخلت أفغانستان أتون حرب أهلية طاحنة لا تزال تدفع ثمنها ومعها العالم كله حتى الآن.

الدروس المستفادة من القصة السابقة أن الأحداث المهمة لا تنتظر أحداً، الجميع يعلمون أن السعودية مشغولة باليمن حتى توفر له السلم وليس فقط إخراج الحوثيين وصالح من صنعاء لكي تعلن أنها انتصرت، وهذا يحتاج إلى أشهر عدة، والأتراء وتحديداً الحزب الحاكم هناك مشغولون بالانتخابات التشريعية الشهر المقبل، انتخابات مصرية لا بد أن يحقق فيها انتصار كاسح كي يستطيع تعديل الدستور وتحويل النظام إلى رئاسي، ولكن الثوار السوريين لن ينتظروا هذا أو ذاك. يرون أن صفهم انظم بوحدة غير مسبوقة، والنظام ينهار، وللانتصار زخمه الذي يجب أن يوظف لمزيد من الانتصارات، وأنهيار النظام يأتي معه انهيار معنويات وانشقاقات، وهي فرصة يجب أن تستغل، الأحداث سريعة في سوريا، ولن تنتظر اجتماعاً يعقد في الرياض - كما تقول المعارضة إنها تلقت دعوة لحضوره - ولا جولة مفاوضات جديدة مع المبعوث الأممي دي ميستورا لعرض أفكار غير مجرية، القرار بات بيد مجاهدين يجتمعون أسفل شجرة مشمش بريف إدلب، أمامهم خريطة سوريا، يرون أن الفاصل بينهم وبين مجاهدي حمص وحمامة كيلومترات معدودة، يتواصلون مع إخوانهم جنوباً في درعا وحول دمشق، يقلّبون اختيارهم ويرسمون خططهم، ويعلمون أنهم لن يتلقوا اتصالاً من الرياض أو أنقرة يطلب منهم الانتظار، بل إن مصلحة البلدين أن يكفيهما الثوار عناء التدخل، وأزمات دولية وإقليمية مع إيران أو الروس، ليتدخلوا لاحقاً مناصرين ومباركيين.

ولكن مثلاً حصل في أفغانستان في نيسان (أبريل) 1992 فإن «فتح كابل» - كما سماه المجاهدون وقتها - لم ينه الأزمة الأفغانية، وإنما فتح فصلاً آخر منها كان أكثر إيلاماً وأعظم كلفة، كذلك سيكون «فتح دمشق»، مما لم يبدأ منذ اليوم تفاعلاً سعودي تركي مع الواقع السوري لترتيب اليوم التالي لسقوط بشار، فإن كل شر حصل في أفغانستان يمكن أن يحصل وزيادة في سوريا، فالأخيرة كانت بعيدة وكان يمكن إهمالها، ولكنها لاحقت العالم بطائرات تتصف أبراً في 11 من أيلول (سبتمبر) 2001. أما سوريا فإنها في وسطنا.

هناك ثلاثة تحديات خطيرة ستواجه الثورة السورية بعد بشار، أولها وأخطرها: «وحدة الثوار» ومنع حصول صراع بينهم، والذي لا بد أن يحصل، ليس فقط لاختلافات المرجعيات السياسية بين إسلاميين وعلمانيين، بل حتى بين مدينة وأخرى أو حارة وحارة، وتنظيم وتنظيم، مشكلة سورية أنها تفتقر إلى «ديغول» يجتمع حوله كل الثوار، مشكلتها أنهم جميعاً ديغول، وأكبر خدمة تقدمها الرياض لهم هي آلية لاتخاذ القرار (شيء شبيه بما فعل مولوي حقاني في روالبندي)، تمهد لمجلس تأسيسي يفضي إلى انتخابات ورئيس ودستور، مهمة ليست سهلة بعدها تنوعت مشارب الثوار، ولكن الأدوات والقواعد التي

استخدمت في تشكيل «جيش الفتح» مشجعة ويمكن البناء عليها.

التحدي الثاني: هو منع إيران من تنفيذ «الخطة ب» أي دولة مذهبية في الساحل، فهي موطن قدم لها يتنافى مع الأهداف السياسية لعاصفة الحزم التي اطلقت من اليمن ولكن مهمتها أوسع من ذلك، وتفتيت لسوريا لا تستحقه ولا يليق بقلبعروبة النابض وموطن حلم الوحدة العربية، كما أنها مشروع تقسيمي للمنطقة على خطوط طائفية وعرقية سيكون في قبوله هنا سابقة لكي يُقبل هناك، وهناك.

إنه ليس مشروعًا إيرانياً علويًا صرفاً، إنما فكرة خبيثة ستجد مؤيدين غير متوقعين لها في إسرائيل وبعض العاصم الأوروبية، وهنا تكمن خطورة المشروع وضرورة التصدي المبكر له.

التحدي الأخير هو «داعش» التنظيم الطفيلي الذي يقتات على انتصارات الثورة، لقد فقد زخمه بفضل انتصارات الثوار والقوى المعتدلة، وكذلك بفضل الروح الإيجابية التي ضختها «عاصفة الحزم» وسط جموع الشباب المسلم المتحمس للتغيير، ولكنه يظل خطراً كامناً بباطنيته وعلاقاته المشبوهة.

بعد فتح دمشق ليت أحداً يرفع شعار «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلّى العصر إلا في (داعش)»، فلن يقضي على هذه الطغمة إلا مجاهدون يحرّكهم الإيمان وذاقوا شرهم، فيقيمون عليهم الحجة بالحق والسيف معاً، فيتخلّ صفهم ويتفكّك جمعهم فيولون الدبر.

إنها فرص أنت مجتمعة، وكأنها على قدر، فاغتنموها.

الحياة اللندنية

المصادر: